شهادة.

قاربت كتابة الرواية بعد مخاض طويل كنت أبحث خلاله عن القول الذي هو قولي الخاص. وإذا عدت إلى بدايات التجربة أرى أنني دخلت عالم الكتابة من باب البحث عن الحرية فكان أول عمل قمت به هو كتابة أكاديمية تعالج موضوع تحرير المرأة في لبنان ، عمل نلت به شهادة الدراسات العليا في الفلسفة . بعده انتقلت إلى السياسة وبحثت في مفهوم التحرر في الفكر السياسي العربي المعاصر وهو العمل الذي خولني من نيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة . لكنني كتبت الدراسة الأولى باللغة العربية وكتبت الثانية باللغة الفرنسية مما طرح عندي تساؤلاً حول اللغة التي بها سأكتب لاحقاً قبل أن أقرر الكتابة بالعربية، ولهذا القرار دوافع قيمة مفهومية وجمالية، جعلتني أعتز بكون اللغة العربية هي لغتي الأم . دعوني أعدد أهم هذه الدوافع :

أول ما استرعى انتباهي هو أن اللغة العربية هي الوحيدة بين اللغات التي أعرف ، التي تسمي الكائن البشري بلفظ يحمل صيغة المثنى وهو " إنسان" أي الجمع بين إنسين، وهو اعتراف واعٍ أو غير واعٍ بأن هذا الكائن البشري هو اثنان مختلفان وليس واحداً وبالتالي هو ذكر وأنثى. وهذا يعنيً أن اللغة العربية تقر بكيانية المرأة كذات . من هنا كان اشتقاقي لمصطلح " إنسى" بدل امرأة للتدليل على أنثى الكائن البشري وذلك لأنني وجدت أن مصطلح "امرأة" هو تأنيث لمصطلح " المرء" والمرء هو النكرة الذي ليس له هوية محددة ، وكلنا يعرف أهمية دور الاسم في كيفية انوجاد المسمى. ولهذا السبب أقترح وأطالب باعتماد مصطلح "إنسى" بدل مصطلح امرأة وهذا ما أقوم به في رواياتي.

هذا المصطلح "إنسان" الذي هو بصيغة المثنى ليس عابراً في اللغة العربية لأنها من اللغات التي تفرد للمثنى مقاماً خاصاً في قواعدها وهذا دليل على أنها تفسح في المجال لوجود الآخر وهو دليل على أن لغتنا تملك في تكوينها ووجدانها الأسس الأولى للديموقراطية.

أخيراً ، إن اللغة العربية هي الوحيدة بين اللغات المتداولة على الصعيد العالمي التي توفر حيزاً خاصاً للتأنيث ليس فقط في الضمائر والصفات بل تدخله في صلب صيغة الفعل . وأعتبر ذلك اعترافاً صريحاً من اللغة العربية بأن الإنسى فاعلة وموجودة وأن فعلها يختلف عن فعل الرجل وهو اعتراف منها بالاختلاف وليس بالتمايز.

لكل هذه الأسباب وغيرها قررت الكتابة باللغة العربية . لكن هذه الكتابة طرحت عندي تساؤلات عديدة تصب كلها في مجال حقوق الإنسى وكيفية انوجادها كذات . كتبت الكثير من الدراسات في الحقل الفلسفي والسياسي، وبعد تراكم التجارب الكتابية هذه انطرحت أمامي ، من جديد أسئلة حول الكتابة ، أي أنني طرحت على نفسي سؤالين أساسيين وهما : لماذا أكتب وكيف أكتب.

أولاً : لماذا أكتب وأستطيع القول لماذا نكتب؟ علمتني قراءاتي وأبحاثي ، أن الشيء لا يوجد إلا حين يُعقل أي حين نجد له اسماً ، حين نعرّفه ، فبتسمية الشيء يكون انوجاده. لكن استمرارية هذا الوجود تتم بواسطة التداول الذي يستقيم فعله حين يغيب فعل التعريف ولا يبقى سوى المعرّف عنه ولذلك نستعمل الكلمات من دون أن نفكر أو نعي أصلها وكيفية وصولها ألينا. لكن هذه الاستمرارية لا تحظى بديمومتها واختراقها لمفعول الزمن إلا حين تدوّن وتحفظ في كتب تشبه الأضرحة لكنها أضرحة لكائنات حية، ولهذا السبب تحفظ على رفوف المكتبات وفي الهواء الطلق وليس تحت التراب . إذاً الكتابة هي التجربة التي تُعلمنا كيف يستمرّ الإنسان بعد موته . هنا أرى أنه وعلى الرغم من أن لكل إنسان هدفاً من وراء الكتابة ، يبقى أن الهدف الأهم هو ذلك الوهم الذي ندخله أو تلك اللعبة التي نلعبها أحياناً ببراءة وفرح لأننا لا نعيها وأحياناً أخرى نلعبها بمأساوية كبيرة لأننا نعيها ، أي نعرف أنها مجرد لعبة ، لعبة الخلود الوهم الذي يلجأ إليه الإنسان هرباً من حياة بائسة وهي حتماً بائسة مهما بدت ناجحة لأن نهايتها هي ذلك العدم الذي لا يرتوي . لكنها ، أي الكتابة ومن بين الألعاب الكثيرة في الحياة هي اللعبة الأمتع بنظري لأنها المجال الذي يمارس الكاتب ، وبخاصة إذا استمر هاوياً وليس محترفاً ، نرجسيته بكاملها . والفرق بين الهاوي والمحترف هو أن الأول يعي أنه يلعب بينما الثاني لا يعي أنه يلعب وهكذا يحاول الأول إرضاء ذاته وقناعاته بينما يلهث الثاني وراء إرضاء الآخرين ، يعني الرأي العام وإرضاء " الحقيقة" . لكن هذا المحترف ، بجديته هذه ، يخسر نفسه مرتين، مرة لأنه لن يستطيع إرضاء الآخر ومرة ثانية لأنه لن يرضي "الحقيقة" لأنها ، بكل بساطة ، غير موجودة .

أما السؤال الثاني : كيف نكتب؟ فيدخلني مباشرة في تجربتي الخاصة . أول عمل قمت به في مجال الكتابة كان دراسة حول تحرير المرأة ، كما ذكرت سابقاً . كتبت هذه الدراسة باندفاع كبير ووضعت فيها كل قناعاتي في تلك المرحلة في بداية السبعينات من القرن الماضي ، وقناعاتي تلك كانت أنه لا يوجد اختلاف بين المرأة والرجل إلا اختلافات شكلية خارجية ليس لها أي تأثير على الأبعاد الأخرى التي تشكل جوهر الإنسان.

انطلاقاً من هذه القناعات تابعت التحصيل و التعلّم من تجارب الحياة وتابعت أيضاً الكتابة . لكني كنت كلما ازددت تجربة وتحصيلاً ، شعرت بالغربة عن كتاباتي. هكذا رويداً رويداً ومع مرور السنين بدأت أشعر أن هناك انفصاماً بيني وبين ما أكتب ، انزعاجاً ما وعدم رضا . حين قوي هذا الشعور أخذت أبحث عن سببه، ومع الوقت اكتشفت أن عدم الرضا ذاك عائد إلى كوني أكتب بالواسطة ، يعني أنني أكتب قولاً غير قولي ، أقول ما لا يقولني والسبب هو أنني كنت ، كي أعبر عما أريد التعبير عنه ، كنت أستعير القول السائد الذي لا بد منه لأنه هو الوحيد الموجود. لكن هذا القول السائد أصبح أداة عاجزة عن التعبير عما أريده فعلاً. إنه يعبر أو يقول ما يجب أن أكون وفقاً للسائد ولا يعبر عما أنا في الواقع.

القول السائد لم يتغير ، أنا تغيرت ، ولذلك أصبح الشرخ يتسع بيني وبين قولي. وحين بلغ الانفصام حداً لا يحتمل توقفت عن الكتابة ولم أعد أليها إلا حين وجدت الحل وهو التالي: إذا كنت لا أجد أن القول السائد هو قولي ، فهذا يعني أنني مختلفة عما يقوله. وبما أن هذا القول السائد هو القول الذكوري الذي حين أستعيره أو أستعمله لأعبر عن ذاتي يجعلني أكون به وليس بذاتي ، أدركت اختلافي وأدركت أنه يجب أن يكون هناك قول يناسبني ، قول يقولني من دون أن أشعر بالانفصام، قول يقول اختلافي كإنسى.
عدت إلى الكتابة بعد انقطاع كنت خلاله أبحث عن ذاتي ، عدت إلى الكتابة بعد أن تصالحت مع حالي ، عدت إلى الكتابة غير آبهة بالقول السائد ومحاولة بلورة قولي أنا الذي أعتبره القول المختلف ، قول الإنسى.
لكن كتابي الأول وهو الرواية التي تحمل عنوان "إلى هبى" أتى على لسان الرجل وأدركت لاحقاً أن هذا الأمر يعود إلى كوني لم أتخلص نهائياً من القول السائد قول الذكر. أما العمل الثاني وهو رواية "هبى في رحلة الجسد" أتت فيها الأصوات أي الأقوال بالتناوب حيث كان للرواية راويان ، كل يحكي عن ذاته ، فكانت أرقى من الرواية الأولى بالنسبة للهم الذي كنت أحاول تذليله. أما الرواية الثالثة وهي "صوت الناي" أو سيرة مكان فكان فيها الراوي غير معروف الهوية وهذا ما دفعني إلى إعادة البحث في ماهية القول الإنسوي ووجدت أنه من الضروري أن يبنى هذا القول على أسس تبرر وجوده، أسس مختلفة عن أسس القول الذكوري السائد ، وهذا ما قمت به من خلال دراسة حول الموضوع وهي دراسة نشرتها كملحق لروايتي " حين كنت رجلاً " والتي أعتبرها قولاً إنسوياً كما أريده أن يكون وكما أسست له.وهذا ما حاولته في كل رواياتي اللاحقة من "أيهما هو" إلى "أنا هي أنت" إلى" بالإذن من سفر التكوين" إلى "الصفحة الثانية "إلى " تركت الهاتف يرن" التي ستنشر قريباً .
وقبل أن أنهي كلامي ، لا بد من القول أنني مدركة تماماً أن الانتقال من قول شكل كل مكتسباتنا الثقافية إلى قول آخر أحاول إرساء أسسه ليس بالأمر السهل. لذا أحاول وسأستمر في المحاولة علّ ذلك يكون بمثابة وضع المدماك الأول في عمارة القول الإنسوي الذي أحاول جادة ومقتنعة بضرورة إيجاده كي تصبح الإنسى موجودة بذاتها لا بسواها.

إلهام منصور.